تمثيل قرآني

في القرآن الكريم ضروب من التمثيل والتصوير يسوقها للتدليل على وحدانية الله وقدرته ، ويوضح بها امكان البعث وسهولته ، ويكشف عن حقائق يجب الا يشك في صدقها عاقل ، ويكشف بهذا التمثيل عن الصواب الذي غشاه الجهل والعناد ، ويورد كثيرا منه للعظة والاعتبار ، قال تعالى : **(ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون)** الزمر/٢٧ . وقال سبحانه : **(ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون)** ابراهيم/٢٥ . وقال وعز وجل : **(ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم)** النور/٣٥ .

وانه ليسترعي الانظار أن بعض هذا التمثيل جاء مقرونا بالحض على التفكير ، أو مقرونا بتقدير العلماء والمفكرين أو مصحوبا بالسخرية من الجهال والأغبياء ، كما يتضح من الآيات الآتية :

(١) قال تعالى : **(ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون)** البقرة/١٧١ .

فصور الذين كفروا وهم لا يستجيبون لمن يدعوهم الى الايمان بالله، بالبهائم التي يصيح بها راعيها ويزجرها فلا تعي غير تصويته ، ولا تفقه شيئا مما يقوله أو يلفظ به ، لأن الكفار صم عن الحق الذي يسمعونه ، ، بكم عن الاقرار بما يجب أن يقروا به . ضلال جهال لا يعقلون .

(٢) وقال سبحانه : **(أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء ، فأصابها أعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون)** البقرة/٢٦٦ .

فمثلت هذه الآية حال من عمل أعمالا طيبة لا يبتغي بها وجه الله تعالى فصارت عاقبتها وبالا عليه بحال من يمتلك حديقة ذات خصب وماء جار وثمرات، وقد كبرت سنه ، وله أبناء صغار ضعاف ، فهو في اشد الحاجة الى حديقته ثم حاقت بالحديقة صاعقة أحرقتها .

مُوقظ للتفكير

للدكتور أحمد الحوفـــي

أرأيتم هذا المثل ؟ ان الله تعالى يضربه ، ويضرب أشباهه ، ويبين لكـــم الآيات الداله على وحدانيته وقدرته ، فعسى أ نتفكروا لتهتدوا الى الحق وتؤمنوا به وتذعنوا لـــه .

(٣) وقال تعالى : **(واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعـــه الشيطان فكان من الغاوين.ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون)** الأعراف/١٧٥ و ١٧٦ .

ها هنا تمثيل ذلك العالم الجاحد الضال بالكلب حقارة ودناءة، وهذا التمثيل صادق على اليهود الذين جحدوا نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وهم قد قرأوا في التوراة الصحيحة الوعد به والبشارة ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، ويستعجلون بعثته لينتصروا به عليهم .

(٤) وقال سبحانه : **(إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلنا من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون)** يونس/٢٤ .

فقد شبه الله تعالى حالة الدنيا وقد زال نعيمها بعـــد اقبال ، وكســـفت حضارتها بعد اشراق ، وهلك أهلوها بعد أن اطمأنوا اليها، وحسبوا أنهم قادرون على كل شيء ، بحال الأرض التي يزدهر نباتها ، ويزينها بخضرته ورفيفه وثمراته لكنه لا يلبث أن يجف كله ، ويصير حطاما ، كأنه لم يكن بالامس .

وهذا تمثيل يستبين للذين يتفكـــرون ويعون ما يسمعون .

(٥) وقال تعالى : **(ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال**

للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار) ابراهيم/٢٤ — ٢٦ .

فصور كلمة الحق طيبة ، وكلمة الباطل خبيثة ، بأن جعل الأولى كالشجرة المثمرة المظلة النافعة الراسخة السامقة ، تسخو بثمرها في حينه باذن الله .

أما الثانية فانها كالشجرة القبيحة الكريهة التي استؤصلت من مكانهـا ، فلا حياة فيها ، ولا رعاية لها ، ولا نفـع منها .

كذلك التوحيد يعمر قلب المؤمن ، ويهديه الى طاعة الله والى العمـل الصالح ، فينال الثواب في دنياه وفي أخراه .

وكذلك الشرك فانه باطل وقبيح وليس له خير ولا بقاء .

وهكـذا يوضح الله الأمثال للناس ، ويشبه لهم المعنويات بالمحسوسات ، ليفهموا وليعلموا وليؤمنوا .

(٦) وقال سبحانه : **(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثـل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون)** العنكبوت/٤١ — ٤٣ .

يمثل الله تعالى آلهتهم التي تخذوها من دونه بما يعرف الناس وهنه وضعفه وسهولة القضاء عليه ، وهو نسيج العنكبوت فهم يعلمون ان هبة هواء تبدده ، وأن نفخة من فم تقوضه ، وان لمسة اصبع تخربه ، ويؤكد هذا الضعف ويعقب عليه بأنهم عمي ضالون ، فلو علموا أن دينهم الباطل بلغ هذا المبلغ من الوهـن لنبذوه ولبرئوا منه ، ويعقب سبحانه وتعالى بأنه يعلم أن الآلهة التي يعبدونهـا لا قيمة لها ، ويعلم انهم عبدوا ما ليس بشيء وتركوا عبادة القادر القاهر الذي لا يفعل شيئا الا بتدبير وحكمة .

ثم يقفي على هذا كله بأنه يضرب الأمثال للناس ، ولكن لا يدرك مرماهـا ولا يتبين صدقها ومغزاها الا العلماء ، لأنها تبرز المعاني المحجبة ، وتكشف عن الخفيات ، وتوضحها للافهام .

(٧) وقال تعالى : **(لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرايته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون)** الحشر/٢١ .

في هذه الآية عجب من الذين استبد بهم الفساد والعناد ، وصرفهم الضلال فلم يذعنوا للقرآن الكريم ، ولم تخشع قلوبهم ولم يتدبروا قوارعه وزواجره ، مع أن هذا القرآن الجليل الرهيب لو أنزل على جبل لخشع الجبل وتصدع .

وهذا تمثيل يضربه المولى سبحانه وتعالى للناس ، ويضرب نظائره ، لعلهم يتدبرون ويستخدمون عقولهم التي وهبهم الله اياها .

(٨) على أن في القرآن الكريم الوانا أخرى من التمثيل ، توقظ العقول ، وتقيم الحجة ، وتلزم بالتصديق ، وان لم تقترن بذكر التدبر والتفكير .

أ ـ مثل قوله تعالى : **(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون)** آل عمران/٥٩ . فان الله تعالى الذي خلق آدم من غير أب وأم هو الذي خلق عيسى بن مريم من غير أب ، لأنه تعالى لا يعجزه شيء .

ب ـ ومثل قوله سبحانه : **(أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون)** الأنعام/١٢٢ .

فشتان ما بين المؤمنين والمشركين ، لأن المؤمنين هداهم الله ، فجعل ايمانهم به نورا يسترشدون به ، فلا يضلون ، فهم كالاحياء بعد موت ، أما المشركون فانهم في ظلام كثيف وضلال دائم ،فهم كالموتى .

ج ـ ومثل قوله سبحانه : **(يايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب)** الحج/٧٣ .

اي ان هذا تمثيل واضح يكشف لكم عن حقيقة لا تشكون فيها ، فاستمعوا له وتدبروه .

ان الأصنام وغيرها التي تعبدونها من دون الله لن تستطيع أن تخلق شيئا ما وان كان حقيرا كالذباب ، ولو احتشدت كلها لخلقه .

وان الذباب الحقير لو سلب الأصنام وغيرها شيئا مما تقدمونه لها من قرابين فانها تعجز أيما عجز عن استرداده فما أضعف الذباب ، وما اشد ضعف الهتكم فكيف يتدلى عاقل الى أن يعبد صنما لا يضر ولا ينفع ، ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه اي دفع ؟

د ـ ومثل قوله تعالى : **(مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين)** الجمعة/٥ .

وذلك أن اليهود قرأوا التوراة وعلموها وكلفوا أن يعملوا بها ، ولكنهم لم يعملوا ، فصاروا كالحمار الذي يحمل كتبا ، ولا نصيب له منها الا الجهد والنصب ولبئس مثلا هؤلاء اليهود الجاحدون للحق والله لا يهديهم لانهم عصاة منكرون للحق .

هـ ـ ومثل تصويره حال المؤمنين في شكرهم لله واعتمادهم عليه ومقابلة نعمه بما يجب لها من طاعة وخضوع ، وايمانهم بالبعث وطيب الجزاء ، وسعادتهم برضوان ربهم ، وتصويره حال الكفار في جحدهم نعم الله عليهم ، وانكارهم البعث وغرورهم بما ملكوا ، وانتصارهم بغير الله ، ومفاجأته لهم بالعقوبة وعجزهم عن الافلات منها وندمهم حيث لا يجدي ندم .

فقد صور تعالى كل هذا بأنه كان لكافر حديقتان من أعناب يحيط بهما نخل فيجملهما ويقيهما الحرارة والغبار وبينهما زرع نضير مثمر وكانت الحديقتان تجودان بثمرهما موفورا ناضرا لا تنقصان منه شيئا .

وكان بينهما نهر يجري ولصاحبهما أموال أخرى يثمرها ، فداخله الزهو والغرور بما يمتلك فقال لصاحبه المؤمن وهما يتحاوران انني أوفر منك مالا وأكثر أولادا ونصيرا .

ثم دخل احدى حديقتيه مغرورا ومعه صاحبه المؤمن فقال له : ما أظن أن حديقتي هذه تزول أبدا ، وما أظن القيامة آتية ولو أنها أتت وبعثت كما تزعم أنت فسأجد هناك نعيما يليق بي خيرا من هذا النعيم .

قال له صاحبه المؤمن : عجبا لك لقد كفرت بربك الذي خلقك وسواك ومنحك هذا النعيم ، أما انا فمؤمن بالله ربي لا اشرك به احدا .

لقد كان عليك ان تقول حينما دخلت حديقتك . هذه من فضل ربي ولست قادرا على حفظها وتثميرها الا بعونه واذا كنت تراني اقل منك مالا وولدا فلعل ربي ان يعطيني خيرا مما اعطاك ، أو يسلط على حديقتك ما يمحقها فتصير ارضا مجدبة لا ينبت فيها شيء ، أو يجعل ماءها غائرا لا يستنبط ولا يسقي .

ثم تحقق ما قاله المؤمن فان الله تعالى أهلك الحديقتين ، فصار صاحبهما يقلب كفيه حسرة على ما انفق في عمارتهما ، ويتمنى لو لم يشرك بربه احدا وفي هذه المحنة لم يستطع الكافر المغرور أن يحمي ماله ، ولم تقدر عشيرته على حمايته لأنه فقد نصرة ربه والله تعالى هو الناصر ، وهو الحافظ وهو الذي يجزل الثواب لأوليائه من عباده .

قال تعالى : **(واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا.كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا اكثر منك مالا وأعز نفرا . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا .**

قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا . لكن هو الله ربي ولا اشرك بربي أحدا . ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا . فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا . أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا .

وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم اشرك بربي أحدا . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا.هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا) .

الكهف/٣٢ــ٤٤